

الشرح الميسر المفيد على أربع قواعد في التوحيد

قدم له وعلق عليه:

فضيلة الشيخ د. بدر بن علي بن طامي العتيبي

— غفر الله له ولوالديه ولشايخه —

تصنيف:

د. الصغير بن عمار

— غفر الله له ولوالديه —

تقريظ فضيلة الشيخ د. بدر بن علي بن طامي العتيبي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.
أما بعد، فقد قرأتُ ما كتبه أخونا الفاضل الأديب الصغير بن عمار في رسالته المختصرة الموسومة بـ «الشرح الميسر المفيد على أربع قواعد في التوحيد»، وهو مجلسٌ إملاءٍ وشرح للرسالة المختصرة «القواعد الأربع» لشيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وهذه الرسالة من أجَلِّ رسائل شيخ الإسلام وأنفعها، وعليها مدارُ دعوته وجميع مصنفاة، وقد شَرَحَها خلقٌ كثيرٌ من أهل العلم لفضلها وجلالتها.

وانتصَبَ الشيخ الفاضل لشرحها بهذا الشرح المختصر المقتضب -بإذن الله تعالى-، وحرص على تأييد مقوله بمنقوله، فنقل عن جمعٍ من أئمة العلم، ومن فضلاء المتأخرين، ورسالته بمثابة سهمٍ يرمى به في سبيل الله تعالى، ينصر الله به دينه وسنة نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينكأ به عدوًّا ويبطُل حجَّته، والله يُبارِك في رَمِيٍّ مَنْ يَشَاءُ، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وفضل الله يؤتیه مَنْ يَشَاءُ من عباده، فنسأل الله تعالى أن يفتح بهذه الرسالة قلوباً غُلْفاً وأذاناً صُمًّا وأعيناً عُمياً، ويردَّهم إلى الله رداً جميلاً، ويُجَزَلَ الأجرَ لمؤلَّفيها وناشريها، وصَلَّى اللهُ وسلَّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: د. بدر بن علي بن طامي العتيبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليُّ من الدُّلِّ، وما كان معه من إله، الذي لا إله إلا هو، ولا خالق غيره، ولا ربَّ سواه، المستحقُّ لجميع أنواع العبادة، ولذا قضى أن لا نعبد إلا إياه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، البشيرُ النذير، المرسل إلى الناس كافةً بالِمِلَّةِ الحنيفية والهدي المُنير، بعثه الله ﷻ رحمةً للعالمين، والشرك مُضْطَرِمةً ناره، طائرُ شراره، فقام بتبليغ الرسالة حقَّ القيام، وجاهد في الله حقَّ جهاده إعلاءً لكلمة الله، حتى جاء الحقُّ وزهق الباطل، وأدبر ليلُ الكُفر والضلالة، ونُشِرتْ أعلامُ التوحيد، ونُكِستْ رايةُ الشرك وانكسرت شوكتُه، وعلى آله وصحبه، شُمس الهداية، وأوعية العلم، وأنصار الدين القويم، وتابعيهم، وعلى من اقتفى أثرهم، واتبع سيرهم وسلك صراطهم

المستقيم، وجعلنا من المُقْتَدِينَ بهم، المُهْتَدِينَ بهديهم، المُتَمَسِّكِينَ بالكتاب والسنة، نَقَفُ معهما، وبَسِيرَهما نَسِير.^(١)

أما بعد، فهذا تعليق مختصر على رسالة «القواعد الأربع» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ وهومتن عظيم النفع وغزير الفائدة اهتم به العلماء منذ عصر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

أصل هذا الشرح درس صوتي واحد ألقيته قبيل شهر رمضان عام ١٤٣١هـ، ولَمَّا فَرَّغْتُ مِنَ التعليق عليه وعَزَوُ أقواله -وهذا من بركة العلم-، مع تعديل بعض تراكيب الجمل، إِذِ الشرحُ المقرَّر ليس كالتأليف المحرَّر، وسمَّيْتُه: «الشرح الميسر المفيد على أربع قواعد في التوحيد».

ولا يفوتني في هذا المقام أَنْ أَشْكُرَ فضيلةَ الشيخ د. بدر بن علي بن طامي العتيبي -حفظه الله وبارك في علمه وعمله-، حيث تفضَّلَ مشكوراً بمُراجعة الشرح وتقريره، وأفادني -وفقه الله- بملاحظاتٍ وتصويباتٍ أثبتُّها في

١- هذه المقدمة مقتبسة باختصار من مقدمة العلامة حافظ بن أحمد حكيم رَحِمَهُ اللهُ (المتوفى ١٣٧٧ هـ) لكتابه «معارج القبول بشرح سلم الأصول» (١/ ٢٣-٣١).

الكتاب... وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لا يشكر الله مَنْ لا يشكر الناس». (١)
وصدق من قال: (٢)

فلو كان يستغني عن الشكرِ ما جِدَّ
لِعِزَّةِ مُلْكٍ أَوْ عُلوِّ مَكَانٍ
لَمَّا نَدَبَ اللهُ الْعِبَادَ لَشُكْرِهِ
فقال: اشْكروني أيها الثَّقَلانِ

هذا، والله أسأل أَنْ يَنْفَعَ بهذا الشرح كما نَفَعَ بأصله، كما أسأله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا صَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِنَا وَزَلَّاتِنَا،
إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ. والحمد لله أولاً وآخراً، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا
مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وكتب: الصغير بن عمار

صبيحة يوم الأحد ٣ رجب ١٤٣٢،

الموافق لـ ٥ جوان لعام ٢٠١١ ميلادي،

بمدينة «كلارمون فيرون» بفرنسا

١- رواه أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

٢- انظر «الأدب الشرعية» (١/ ٤٠٥).

بداية الشرح

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

تعتبر «القواعد الأربع» من النُبذِ المختصرة في الاعتقاد، إذ هي كلام مجموع قليل اللفظ كثير المعنى، مداره على أربع قواعد جمعها الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ^(١).

وتظهر أهمية هذه القواعد بمعرفة ضدها^(٢)، كما قال المتنبّي:

وبضدّها تتبيّن الأشياء

هذه القواعد تأتي في مرتبة هامة من سُلّم التدرّج^(٣) في طلب العلم، وقد

١- الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ): العالم الرباني الذي جدّد الله به ما اندرس من معالم الدين القويم، فأحيا به السنة، وأمات به البدعة، ومحا به ما انتشر في بلاد المسلمين من الشرك والضلالة. من مؤلفاته: ثلاثة الأصول، كتاب التوحيد، كشف الشبهات ورسالتنا هذه، وغيرها من المؤلفات النافعة.

٢- انظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٦ ط. الوفاء).

٣- انظر «المنهجية في طلب العلم» للشيخ صالح آل الشيخ (مجموع محاضراته، ص ١٩)، و«حلية طالب العلم» لبكر أبو زيد (المجموعة العلمية، ص ١٥٦)، و«السلم التعليمي» للشيخ بدر بن علي بن طامي العتيبي (ص ١٤).

جرت عادةُ العلماء في العُصور المتأخّرة بالبداية في تعليم التوحيد والعقيدة من طريقين:

■ **الطريق الأولى:** ما يتعلّق بتوحيد الألوهية، وهذا يبدأ فيه طالبُ العلم بـ: «ثلاثة الأصول» ثم «القواعد الأربع»^(١) ثم «كتاب التوحيد» ثم «كشف الشبهات»... وهكذا.

■ **والثانية:** ما يتعلق بباب الأسماء والصفات والعقيدة العامة ففي هذا يبدأ طالب العلم بـ: «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية^(٢)، ثم «العقيدة الطحاوية» لأبي جعفر الطحاوي^(٣)، ثم «الحموية» ثم «التدمرية» لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أيضاً، ثم يواصل التدرُّج في أبواب الاعتقاد، ملازماً علماء السنة والأثر.

١- وهو كتابنا هذا.

٢- هو شيخ الإسلام ومجدد الملة أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، أبو العباس الحرّاني (٦١١-٧٢٨هـ). كان رَحِمَهُ اللهُ عالماً كبيراً وعلماً منيراً ومجاهداً شهيراً، جاهد في الله بعقله وفكره وعلمه وجسمه. من مؤلفاته: العقيدة الواسطية والرسالة الحموية والتدمرية ومنهاج السنة النبوية واقتضاء الصراط المستقيم... إلخ.

٣- الإمام أحمد بن محمد بن سلامة، أبو جعفر الطحاوي الحنفي (٢٣٩-٣٢١هـ) من مؤلفاته: العقيدة الطحاوية، شرح معاني الآثار، ومشكل الآثار... إلخ.

وَمَنْ درس هذه الكتب جميعاً على شيخٍ مُتَّقِنٍ ناصِحٍ فلا شكَّ أنه
سَيُحْصَلُ -بتوفيق الله- حصيلةٌ علميةٌ زاخرةٌ في باب الاعتقاد.

ورسالةُ «القواعد الأربع» عليها شروح كثيرةٌ جداً لأهل العلم، وغالبُ
مَنْ جلس للتدريس من العلماء أَملى عليها شرحاً لطلابه، وما كتابي هذا إلا
ثمرةٌ من ثمراتِ عُلومهم، وقطرةٌ من بحورِ جُهودهم، فجزاهم الله عني
وعن المسلمين خيراً.



مقدمة المؤلف

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْتَمًا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنوانُ السَّعَادَةِ».

كعادة المصنف رَحِمَهُ اللهُ بدأ بالدعاء لطالب العلم، وهذا من أعظم الأمور التي ينبغي أن يكون عليها معلّم الخير، وذلك أَنَّ العلمَ مبنيٌّ على الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ولهذا لما ازدحم الناس مرةً على باب الحسن البصري لطلب العلم، فأسمعهم ابنه كلاماً، فقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: مَهْلًا يَا بَنِي، ثم تلا هذه الآية.^(١)

١- انظر «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (٢/ ٢٨٢).

والله يقول: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فقرن العلم بالرحمة لأن العلم مبنئ على الرحمة بالمتعلمين.^(١)

وكان العلماء يروون ويروون لمن بعدهم فيمن طلب الإجازة في الحديث، رواية حديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٢). وهذا الحديث هو المعروف عند أهل العلم بالحديث بالمسلسل^(٣) بالأولية^(٤)، فإن هذا العلم مبناه على الرحمة وهذا كما قال

١- قال السعدي في «تفسيره» (ص ٣٦٠): «أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله». وانظر «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٩٤)، و«أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ١١٤-١١٥).

٢- أخرجه أبو داود وغيره وصححه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٣- الحديث المسلسل: «وهو أن يتفق الرواة في صيغ الأداء أو غيرها من الحالات كأن يقول الراوي: حدثني فلان وهو يبتسم، قال: حدثني فلان وهو يبتسم، وما أشبه ذلك». انظر «نزهة النظر» (ص ١٢٢)، و«الباعث الحثيث» (ص ١٦٣-١٦٤).

٤- قال السخاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جمع طرق هذا الحديث الحافظ الذهبي في جزء سمعناه سماه: «العذب السلسل في الحديث المسلسل»، وكذا التقي السبكي، وابن الصلاح، وآخرون». انظر «فتح المغيث» (٣/ ٥٢-٥٦).

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ فِي «ثَلَاثَةِ الْأَصُول»: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ»،
ثم قال: «اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لَطَاعَتِهِ»، إلى غير ذلك من عباراتِ التَّلَطُّفِ
والدُّعَاءِ.



قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

اعلم - وفقك الله - أن الله جلّ وعلا لا يتولّى إلا الصالحين من عباده. وولاية الله للعبد هي نصرته وتأييده وحفظه له.

والوليّ: هو كل مؤمنٍ تقي^(١)، قال جلّ وعلا: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢ - ٦٣]، فكل من كان تقياً كان لله ولياً.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الولاية عبارة عن موافقة الوليّ الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزّق ولا رياضة»^(٢).

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ»، يعني نافعا أينما كنت، فالرجل المبارك هو الذي أينما حلّ نفع، كالمطر أينما وقع نفع.

والمؤمن هكذا حاله، أينما كان، في أيّ مكان، وفي أيّ وقت وزمان، ينفع غيره، وقبل ذلك ينفع نفسه.

١- انظر «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لابن تيمية (ص ٣٣-٣٧)، و«مجموع الفتاوى» له (١١/ ١٠٠-١٠٥) (٣/ ٢٥٥-٢٥٦)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٦٤)، و«تصحيح المفاهيم» للجامي (ص ٥٢).

٢- «الجواب الكافي» (ص ١٩٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]: «أي: معلماً للخير، داعياً إلى الله، مذكراً به، مرغّباً في طاعته، فهذا من بركة الرجل، ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة». ^(١)



١- «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص ٤).

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ»، وذلك أَنَّ شكر الله جلَّ وعلا من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال جلَّ وعلا: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا دِينُكَ إِلَيَّ لَمُصِّرُ﴾ [لقمان: ١٤].

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح والأركان، فالقلب يعترف بأن هذه النعمة من الله، قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، واللسان يشكر الله ويثني عليه، والجوارح تستعمل تلك النعمة فيما يرضي الله جلَّ جلاله.

قال الشاعر: ^(١)

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاءُ مِنْ يَ ثَلَاثَةً

يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

فذكر اليد (الجوارح)، واللسان، والضمير، يعني الاعتقاد القلبي.

١- انظر «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٢).

مسألة: ما الفرق بين الحمد والشكر؟

قال العلماء: بين الحمد والشكر عمومٌ وخصوصٌ^(١).

الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، نعمةً كان أو غيرها، يقال: حمدتُ الرجلَ على إنعامه، وحمدتهُ على شجاعته.

وأما الشكر: فعلى النعمة خاصةً، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، كما تقدّم.

وعلى هذا، فالحمد والشكر يجتمعان في الثناء باللسان على النعمة، وينفردُ الحمدُ في الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختياري، وينفردُ الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة.

فالحمد أعمُّ متعلّقًا، وأخصُّ آله، والشكر بالعكس.

فنحمد الله جلَّ وعلا لنعمته، ولذاته، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١].

فالله تعالى يُحمد لأنه الله، لأنه كامل في صفاته وأسمائه، ويحمد على ما أنعم به علينا، كما قال جلَّ جلاله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

١- انظر «لسان العرب» (٤/ ٤٢٤)، و«مدارج السالكين» (٧/ ٢)، و«تفسير ابن كثير»

(١/ ٤٢)، و«تفسير السعدي» (ص ٧٠)، و«شرح الواسطية» للهراس (ص ١٠).

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «اللهُ تعالى يُحَمَّدُ على كماله وَجْهَكَ وعلى إنعامه، فنحن نحمد الله وَجْهَكَ لأنه كاملُ الصفات من كل وجه، ونحمده أيضا لأنه كاملُ الإنعام والإحسان».^(١)



١- «شرح الواسطية» (ص ٢٤).

قال: «وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبْرٌ»، يعني إذا أصابه البلاء صبر.

والصبر يكون على ثلاثة أمور: ^(١)

■ على الطاعة بفعلها.

■ وعلى المعصية بتركها.

■ وعلى أقدار الله، بعدم التسخط عليها.

وأعظم أنواع الصبر: الصبر على الطاعة بفعلها - على الصحيح - ^(٢)، ثم

الصبر على ترك المعصية، ثم الصبر على أقدار الله جَلَّ جَلَالُهُ.

والصبر على أقدار الله: يكون بكفّ القلب عن الجزع، وكفّ اللسان

عن التشكيّ والسّخط على قدر الله جَلَّ جَلَالُهُ، وكفّ اليد عن لطم الخدود

وشقّ الجيوب. ^(٣)

١- انظر «مدارج السالكين» (١/ ٥١٠)، و«فتح المجيد» (ص ٣٩٣).

٢- انظر «مدارج السالكين» (١/ ٥١٠)، و«القول المفيد» (٢/ ٣٦).

٣- انظر «مدارج السالكين» (١/ ٥٠٩)، و«عدة الصابرين» (ص ١٧)، و«الآداب

الشرعية» (٢/ ٢٩١)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ٣٤٢، وما بعدها).

قال: «وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ»، يعني إذا أَلَمَّ بِذَنْبٍ طَلَبَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَهُ.

وَعُفْرَانُ اللَّهِ جَلٌّ وَعَلَا لِلذَّنْبِ: هُوَ سَتْرُهُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ.^(١)

قال: «فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ»، وَصَدَقَ رَحْمَةُ اللَّهِ. فَإِذَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شُكْرًا، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبْرًا، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ عَلَى خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.^(٢)



١- انظر «سبيل الهدى والرشاد» لتقي الدين الهلالي (٦/ ٢٦٢).

٢- وهذه الدعوة اقتبسها الإمام محمد بن عبد الوهاب من صدر كتاب «الوابل الصيب» للإمام ابن القيم (ص ٤)، رحمه الله تعالى.

ثم قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِبَطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَّارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ».

تعريف الحنيفية

قال الراغب الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ: «الْحَنْفُ: هو ميلٌ عن الضلال إلى الاستقامة»^(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ الْحَنْفَ هو إقبالُ الْقَدَمِ وَمِيلُهَا إلى أَخْتِهَا، فَالْحَنْفُ الْمِيلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على الآخرِ، فالدينُ الْحَنِيفُ هو الإقبالُ على الله وحده والإعراضُ عما سِوَاهُ وهو الإخلاصُ الذي تَرَجَّمَتِ كلمةُ الْحَقِّ والكلمةُ الطيبةُ - لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»^(٢).

١- «المفردات» (ص ٢٦٠). وعليه، فَالْحَنْفُ من الكلمات الأضداد التي تفسَّرُ بالشيءِ وضدِّه، فهي تفسر بالميل والاستقامة، وهما متلازمان هنا، كما قال الراغب. وانظر «لسان العرب» (٩/ ٥٧).

٢- «الفتاوى» (٩/ ١٧٠).

وعليه، فالحنيفية هي الميلُ عن الشرك، والإقبالُ على التوحيد، وهي
 مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ التي أَمَرَنَا اللَّهُ بِاتِّبَاعِهَا، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ
 اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قال المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريف الحنيفية: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا

لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾».



تعريف العبادة

العبادة لغةً: هي التذلل والخضوع.

تقول العرب: طريقٌ مَعْبُدٌ، يعني: مَذَلٌّ ومَمَّهَدٌ.

قال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ: ^(١)

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا

وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

وأما شرعاً، فالعبادة: كمالُ الذُّلِّ لله جَلَّ جَلَالُهُ، مع كمالِ الحُبِّ

والتعظيم. ^(٢)

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «العبادة هي: الخضوعُ لله بالطاعة،

والتذللُ له بالاستكانة». ^(٣)

١- تحامتني: تركتني، واتَّقَتْنِي؛ العشيرة: أهل بيته؛ والبعر المُعَبَّدُ أي: المُذَلَّلُ.

انظر «شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص ٥١).

٢- انظر «مدارج السالكين» (١/٥٦)، و«فتح المجيد» (ص ٣٠-٣١)، و«محاسن

التأويل» للقاسمي (١/٢٤٩)، و«آثار ابن باديس» (١/٢٨٩).

٣- انظر «جامع البيان» (١/٣٦٣).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: ^(١)

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ

مَعَ ذَلِكَ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ

مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرٌ رَسُولُهُ

لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

ويقول أيضًا: ^(٢)

لَيْسَ الْعِبَادَةُ غَيْرَ تَوْحِيدِ الْمَحَبَّةِ

— مَعَ خُضُوعِ الْقَلْبِ وَالْأَرْكَانِ

وقد عَرَّفَ شيخُ الإسلامِ العبادَةَ في «رسالة العبودية» فقال: «هي اسم

جامع لكل ما يحبه اللهُ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة». ^(٣)

١- انظر «شرح النونية» للهراس (١/ ٩٨-٩٩).

٢- انظر «شرح النونية» للهراس (٢/ ٥١٥).

٣- «الفتاوى» (١٠/ ٩١-٩٣). وانظر «معارج القبول» (١/ ٣٤٣).

واستدلَّ المصنّف بقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلا لأمرهم وأنهم، ومعلوم أنَّ أعظم أمرٍ هو التوحيد، وأعظم نهي هو الشرك.^(١)
قال الشاعر:^(٢)

قد هيوؤك لأمرٍ لوفِطنتَ لهُ
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ
يعني هيأنا الله جلَّ وعلا لأمرٍ عظيم، وهو عبادة الله وحده، وطاعته،
واتباع رسله.

وفي الحديث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما رأيتُ مثلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا،
ولا مثلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا».^(٣)

١- انظر «الفتاوى» (٣٣-٣٤)، «فتح المجيد» (ص ٣٠-٣١)، و«أضواء البيان»
(٣٩٨/٧).

٢- انظر «حادي الأرواح» (٧٩) و«مفتاح دار السعادة» (١/١٧٠). وهذا البيت من
«لامية العجم» للطُّغرائي وهي مشهورة، ولفظه عنده:

قد رشَّحوك لأمرٍ إن فطنت له...

٣- رواه الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «صحيح الترغيب
والترهيب» (٤٦٩/٣): حسن لغيره.

قال: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَّارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ».

والدليل على ذلك ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ». (١)

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بغير طُهُور». (٢)

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ». (٣)

فَإِذَا أَحْدَثَ الْمُصَلِّي تَبَطَّلَ صَلَاتُهُ، وَهَكَذَا التَّوْحِيدُ وَالشِّرْكَ، فَإِذَا أَشْرَكَ الْعَبْدُ شِرْكَاً أَكْبَرَ حَبِطَ عَمَلُهُ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿الزمر: ٦٤ - ٦٥﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ

١- رواه البخاري ومسلم.

٢- رواه مسلم.

٣- أبو داود والترمذي. وانظر «إرواء الغليل» (٣٠١).

أَشْرَكُوا لِحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأنعام: ٨٨]﴾، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نَدَاً دَخَلَ النَّارَ»^(١)، إلى غير ذلك من الأدلة الصحيحة الصريحة بأنَّ الشِّرْكَ يُحْبِطُ الْعِبَادَةَ.



أقسام الشرك وأنواعه

وللشرك أنواع وأقسام كثيرة.^(١)

فباعتبار ما يترتب عليه من أحكام، يقسم إلى: شرك أكبر، وشرك أصغر.

■ الأكبر: ينقض الدين وينقل المرء عن ملّة الإسلام إلى الكفر.

■ والأصغر: يُنقص التوحيد ولا ينقضه بالكلية.

ويُقسم الشرك باعتبار ظهوره وخفائه إلى: شرك جلي، وشرك خفي.

■ الجلي: ما كان ظاهراً، كالذبح لغير الله، وتعليق التهاشم.

■ والخفي: ما يظهر للناس، كالرياء.

ويُقسم الشرك باعتبار حقيقة الإيمان إلى: شرك في الأقوال، وشرك في

الأفعال، وشرك في العقائد.

■ فشرك الأقوال: كالحلف بغير الله.

■ وشرك الأفعال: كالسجود لغير الله.

■ وشرك في العقائد: كالتركيز على غير الله.

١- انظر في تقسيم الشرك: «الفتاوى (١/ ٧١)، و«الجواب الكافي» (ص ١٣١)،

و«تيسير العزيز الحميد» (ص ٢٦)، و«فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٧٤٦-٧٥٠)

و«كتاب التوحيد» للفوزان (ص ٩-١٤).

وللشرك تقسيمات أخرى، كُلُّها تؤدي إلى حقيقة واحدة، وإنما كان
اختلاف أقسامه من باب: اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات.



هل يغفر الشرك الأصغر؟

مع اتفاقهم على أنَّ الشرك الأصغر محرَّم، وأنه من أكبر الكبائر، اختلف أهل العلم فيمن مات على الشرك الأصغر من غير توبةٍ على أقوال.^(١)

- فذهب الأكثر: إلى أنَّ الشرك بكلِّ أنواعه لا يُغفر إلا بالتوبة منه، ومن لقي الله به لا بد أن ينال حظَّه من التمحيص، وإن دخل بعد ذلك الجنة.
- وذهب آخرون: إلى أنه داخل تحت مشيئة الله -بخلاف الأكبر-، وأنَّ حكمه كسائر الكبائر، إن شاء الله عَذَّب به، وإن شاء غفره.^(٢)

- وتوسَّط البعض: فقالوا: هو لا يُغفر في نفسه، غير أنه يدخل في الموازنة بين الحسنات والسيئات، فمن رجَّحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ولا يُعَذَّب حينها على الشرك الأصغر.^(٣)

والله أعلم بالصواب، ولكن الذي ينبغي على المسلم هو أن يتعد عن الشرك كلّ، كبيره وصغيره، لأنَّ الشرك عظيم، ولو كان أصغر، وجنسه

١- انظر «القول المفيد» (١/ ٦٤، ٩٩، ٢٥١)، و«موسوعة العقيدة» لمجموعة من الباحثين (٤/ ١٦٤٤).

٢- يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «الجواب الكافي» (ص ١٣٣): «وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر».

٣- انظر «التمهيد شرح كتاب التوحيد» (ص ٥٣، ٦٠).

أَعْظَمُ مِنْ جَنْسِ الْكِبَائِرِ، حَتَّى قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ
كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغيرِهِ وَأَنَا صَادِقٌ».^(١)



١- رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والطبراني، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل
(٢٥٦٢).

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشُّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشُّرْكُ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]».

أهمية معرفة الشرك بتفاصيله

إذا علم المرءُ خطرَ الشرك فإنه سيُسارع إلى تركه والابتعاد عن سُبله. وربما قال قائلٌ: لماذا تدرسون الشرك ولا تدرسون التوحيد؟ والجواب أن يُقال: (١)

■ أولاً: أننا نبين التوحيد ونبين الشرك، لأنَّ كلمةَ التوحيد التي بها قوام الإسلام (لا إله إلا الله) فيها شريك منفي، وإله يوحد، فمعرفةُنا للشرك وصوره يتحقّق به النفي في كلمة التوحيد، ونعرف أنَّ غيرَ الله لا يستحق أن يُتألَّه له بهذا النوع من العبادة، فنبين أن صرفَ تلك الأنواع من العبادة لغير الله شركٌ حتى يتحقّق للمسلم أولاً معنى نفي الإلهية عن غير الله.

١- انظر «رسالة الشرك ومظاهره» للسبيلي (ص ٣٩).

■ ثانيًا: أنَّ التوحيد أصل العبادات، وكلُّ عبادة من العبادات لها شروط لا تصح إلا بها، ولها نواقض تبطلها وتفسدُها وتنقصُها، فللصلاة ما يُنقصُها وينقصُها، ومثلها الزكاة والحج والصيام وغيرها من العبادات.

وفي هذا يقول حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني»^(١).
عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ، لَكِنْ لِتَوْقِيهِ

وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، يَقَعْ فِيهِ

ويروى أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، إِذَا وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْجَاهِلِيَّةَ»^(٢).

فمعرفة ما يُخلُّ بالتوحيد ضرورة لعل الله أن يخلصك من شبكة الشرك.
وأول خطوة في التوحيد هي العلم، قال جلَّ وعلا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]. فكيف تريد أن

١- رواه البخاري ومسلم.

٢- انظر «فتح الباري» (١/ ٢١٠-٢١١).

توَحَّدَ اللهُ بدون علم؟ هذا لا يستقيم أبداً، إذ لا بد من العلم قبل القول
العمل.^(١)

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَلْ تُمَكِّنُ عِبَادَةُ اللهِ الَّتِي هِيَ
حَقُّهُ عَلَى خَلْقِهِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا إِلَّا بِالْعِلْمِ؟».^(٢)

قال: «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ».

فالمصنَّف رَحِمَهُ اللهُ استنبط هذه القواعد من القرآن والسنة، وهذا صنيع
العلماء السائرين على منهاج النبوة، إذ الواجب علينا أن نرجع في تقعيدنا إلى
الكتاب والسنة، ليكون هذا التقعيد تقعيدياً صحيحاً سليماً غير معارض.^(٣)
يقول الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا كَانَ حِفْظُ الصَّحَةِ بِالْغِذَاءِ
وَالدَّوَاءِ، فَإِنَّ حِفْظَ التَّوْحِيدِ بِالْعِلْمِ وَالِدَعْوَةِ، وَلَا يَحْفَظُ التَّوْحِيدَ عِلْمٌ
كَعِلْمِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَلَا تُجْلِي الشَّرْكَ دَعْوَةٌ كَالدَّعْوَةِ بِأَسْلُوبِهِمَا».^(٤)

١- انظر «التمهيد شرح كتاب التوحيد» (ص ٥٣، ٦٠).

٢- «حاشيته على ثلاثة الأصول» (الجامع لشروح ثلاثة الأصول، ص ١٧).

٣- انظر «شرح القواعد الأربع» للعلامة الفوزان (ص ٧-٨).

٤- «رسالة الشرك ومظاهره» (ص ٣٤).

وكم أحسن من قال: ^(١)

إِنَّ الْعُلُومَ وَإِنْ جَلَّتْ مُحَاسِنُهَا

فَتَأْجُهَا مَا بِهِ الْإِيمَانُ قَدْ وَجَّبا

هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ اللَّهُ يُحْفَظُهُ

وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَجَّ الْكَرْبَا

فَذَاكَ فَاعْلَمْ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى فِيهِ

نُورُ النُّبُوَّةِ سَنَ الشَّرْعِ وَالْأَدْبَا

وَبَعْدَ هَذَا عُلُومٌ لَا انْتِهَاءَ لَهَا

فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا مَنْ آثَرَ الطَّلْبَا

وَالْعِلْمُ كَنْزٌ تَجِدُهُ فِي مُعَادِنِهِ

يَا أَيُّهَا الطَّالِبُ ابْحَثْ وَاظْطَرِ الْكُتُبَا

وَاتْلُ بِفَهْمٍ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ أَتَتْ

كُلُّ الْعُلُومِ تَدَبَّرُهُ تَرَ الْعَجْبَا

وَاقْرَأْ هُدَيْتَ حَدِيثَ الْمُصْطَفَى وَسَلَنْ

مَوْلَاكَ مَا تَشْتَهِي يَقْضِي لَكَ الْأَرْبَا

١- انظر «تفسير القرطبي» (١/ ٤١).

مَنْ ذَاقَ طَعْمًا لَعَلِمَ الدِّينَ سُورِبِهِ
إِذَا تَزَيَّدَ مِنْهُ قَالَ: وَاطْرَبَا



القاعدة الأولى

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُقَرَّنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْزِقُ﴾» [يونس: ٣١].

خلاصة القاعدة الأولى: أَنْ تُوْحِدَ الرُّبُوبِيَّةَ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ -أَيَّ الْعِبَادَةِ-، وَهُوَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَرْسَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، بَلْ مِنْ أَجْلِهِ خَلَقَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِذَا خَلَا الْعَالَمُ مِنَ التَّوْحِيدِ خَرِبَ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ.^(١)

وذلك أن في آخر الزمان، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللهُ، اللهُ»^(٢)، وفي رواية «حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

١- انظر «التذكرة» للقرطبي (٢/ ٥٤٤)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص ٨٨-٨٩).

٢- رواه مسلم. وانظر «شرح مسلم» للنووي (١/ ٤٥٥).

فما دام التوحيد باقياً، فالسماوات والأرض باقية، لأنه الغاية التي من أجلها خلق الله الدنيا، ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].
 أي: لا يبالي ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحّدوه ويسبّحوه بكرة وأصيلاً.^(١)

قال رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُقَرَّنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ...».
 يعنى أَنَّ المشركين الذين بُعث فيهم رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقَرَّنُونَ بتوحيد الربوبية، فَمَنْ قال: (إِنَّ المرءَ مادام مُقَرَّراً بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ رَازِقُ مُدَبِّرُ فهو باقٍ على الإسلام وإن دعا غير الله)؟! فكأنه أدخل أبا جهل وأبا لهب في الإسلام!! إذ ما الفرقُ بين هذا وبين أبي جهل؟ أبو جهل كان يعتقد أَنَّ اللهَ خَالِقُ رَازِقُ مَالِكٌ كما هو صريح القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ولكنَّ هذا الإقرار لا يُغني عنهم من الله شيئاً، ولذلك كفرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاهدهم، واستباح دماءهم وأموالهم.

١- انظر «تفسير ابن كثير» (٣٦/٦).

إذن، هؤلاء القوم هل دخلوا في الإسلام؟ الجواب: لا!! بصريح القرآن، بل هم كفار، خالدون في النار لا يخرجون منها، قال جلّ وعلا: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فمن قال بأن توحيد الربوبية يكفي في النجاة يوم القيامة، فقد ساوى بين الموحّد والكافر، وبين أبي بكر وأبي جهل!! وهذا لا شك أنه من أعظم الجهل والظلم.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ^(١): «والمشركون من قريش وغيرهم، الذين أخبر القرآن بشركهم واستحلّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار، كانوا مقرّين بأنّ الله وحده خلق السماوات والأرض».

وقال الشيخ الفوزان -بارك الله في عمره-^(٢): «والإقرار بهذا وحده (يعني توحيد الربوبية) لا ينفع صاحبه، لأنّ هذا أقرب به المشركون وصناديدُ

١- «مجموع الفتاوى» (١/ ١١٧ ط. الوفاء). وانظر مدارج السالكين (١/ ٢٤٤)،

و«الدين الخالص» لصديق حسن خان (١/ ١٦٤).

٢- «شرح القواعد الأربع» (ص ١٩).

الكفرة، ولم يُخرجهم من الكفر، ولم يُدخلهم في الإسلام، فهذا غلط عظيم! فمن اعتقد هذا الاعتقاد ما زاد على اعتقاد أبي جهل وأبي لهب، فالذي عليه الآن بعضُ المُثَقِّفين هو تقرير توحيد الربوبية فقط، ولا يتطَرَّقون إلى توحيد الألوهية، وهذا غلط عظيم في مسمَّى التوحيد».



أقسام التوحيد والرد على من أنكرها

اعلم - وفقك الله - أنَّ العلماء رحمهم الله يتقسمون التوحيد - الذي هو حقُّ الله - إلى ثلاثة أقسام: ^(١)

- توحيد الربوبية.
- وتوحيد الإلهية.
- وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الربوبية لا يُدخل المِرَّةَ في الإسلام، بل حتى الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا يدعون بالأساس على هذا النوع من التوحيد، بل كانوا يذكرونه للتقرير وليصلوا به إلى توحيد الإلهية، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ

١- قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ: «هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرَّره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرَّره الزبيدي في «تاج العروس» وشيخنا الشنقيطي في «أضواء البيان» في آخرين، رحم الله الجميع. وهو استقراء لنصوص الشرع وهو مطَّرد لدى أهل كلِّ فنٍّ كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف والعرب لم تُقَدِّ بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء». «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ضمن مجموعة الردود، ص ٣٣١).

وانظر «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» لعبد الرزاق العباد، و«الرد على الأحباش» للشهراني (١/ ٢٢٨).

مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [يونس: ٣١].

ولهذا قال النبي ﷺ لما سأله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟»، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً، وَهُوَ خَلَقَكَ». ^(١)

يعني: إذا أقررت أنه خالق، فلماذا تجعل له ندًا في العبادة؟

قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. فسرها السلف: وما يؤمن أكثرهم بالله في الربوبية، إلا وهم مشركون في الألوهية.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مِنْ إِيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ». ^(٢)

ولكن شرك المشركين كان باتخاذ الوسائط بينهم وبين الله. ^(٣)

١- رواه البخاري ومسلم.

٢- انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٩٠).

٣- انظر «بدائع التفسير» لابن القيم (٢/ ٣٥-٣٦)، و«تفسير السعدي» (ص ٨٤٤) عند قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

قال تعالى في أول سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وهؤلاء الذين يشركون في هذه الأزمان المتأخرة، يقولون: نحن مقرّون بأن الله خالق رازق، وأنه هو المعطي حقيقةً، وما عبدنا الوليَّ أو صاحبَ القبر الفلاني إلا لأنه يتوسّط لنا عند الله.

وههنا نقول: ما الفرق بينهم وبين أبي جهل؟

الجواب: لا فرق بينهم.

وهل يخطئ المرء إذا قال: إن هؤلاء ارتكبوا شركاً أكبر؟

الجواب: لا!

هذا منهج القرآن، وهذا ما سار عليه نبيُّ الرحمن، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يقول ابن القيم في «النونية»: ^(١)

فَاللَّهُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْخَلَّاقُ وَالرَّ

زَّاقُ مُوَلِّي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ

لَكِنَّهُمْ سَاوَوْهُمْ بِاللَّهِ فِي

حُبِّ وَتَعْظِيمٍ وَفِي إِيمَانِ

جَعَلُوا مَحَبَّتَهُمْ مَعَ الرَّحْمَنِ مَا

جَعَلُوا الْمَحَبَّةَ قَطُّ لِلرَّحْمَنِ



١- انظر «شرح النونية» للهراس (٢/ ٥١٢-٥١٣).

القاعدة الثانية

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «أنهم يقولون: ما دَعَوْنَاهُمْ وتوجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ القُرْبَى والشفاعة. فدلِيلُ القُرْبَةِ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» [الزمر: ٣].

هذه القاعدة الثانية: تتحدث عن الشفاعة، وهي من المباحث التي يتمسك بها القوم، حيث قالوا: (إنَّا لا نعبد أصحاب القبور لأنهم ينفعون أو يضرُّون استقلالاً، ولكن لأننا نرجو أن يشفعوا لنا عند الله)، كذلك قال الذين كفروا من قبلهم، وقد أبطل الله قولهم وحكم عليهم بالضلال والكفر، فقال جلَّ وعلا في أول الآية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي: ما نعبد هؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده، ثم قال في آخرها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾، فدلَّ على أن فعلهم هو عَيْنُ الكفر.

مسألة الشفاعة فيها خفاء

ومسألة الشفاعة مسألة فيها خفاء، ولهذا يقول بعض أهل العلم: إِنَّ إقامة الحُجَّة في مسائل التوحيد تختلف بحسب قوة الشبهة، فأقلُّ الشبهات وُروداً وأيسرُ الحُجَج قُدوماً على المخالف هو فيما يتعلَّق بأصل دعوة غير الله معه، وبالإستغاثة بغير الله، والذبح لغيره، ونحو ذلك، ومن أكثرها اشتباهاً -إلا على المُحقِّق من أهل العلم- مسألة الشفاعة.^(١)

والشفاعة نوعان:

■ شفاعة مثبتة.

■ وشفاعة منفية.

والذي كان عليه المشركون هو الشفاعة المنفية التي لا تنفع صاحبها، بل صاحبها من المشركين.

والشفاعة المثبتة هي التي عليها الموحِّدون، والتي نرجو الله أن تنالنا برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «دليلُ الشفاعة، قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا

لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

١- انظر «التمهيد شرح كتاب التوحيد» (ص ١٧٤).

ففي هذه الآية علَّلَ المشركون شركَهم بالشفاعة، فقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ

شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وهل شفاعتهم شرعية؟ يأتي الجواب في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.



الشفاعة المنفية

قال رَحِمَهُ اللهُ: «والشفاعة شفاعتان: شفاعاة منفية، وشفاعة مثبتة. الشفاعاة المنفية: ما كانت تُطَلَّب من غير الله فيما لا يَقْدِر عليه إِلَّا اللهُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]».

وفي هذه الآية يَبَيِّنُ اللهُ جَلَّ وعلا أن يوم القيامة لا تنفع فيه شفاعة، إِلَّا ما استثناه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بشرطه.

وشفاعاة الكفار تدخل بلا شك في الشفاعاة المنفية، لأن الشفاعاة المنفية هي ما يُطَلَّب من غير الله، فيما لا يَقْدِر عليه إِلَّا اللهُ.^(١)

فمثلا عُفْران الذنوب، مَنْ يقدر عليه؟ وشفاء المرضى؟ والإحياء؟ والإماتة؟ كل هذه أمور من أفراد ربوبية الله، صرفها لغير الله صرفٌ حَقٌّ مَحْضٍ لله لغيره، وهذا عَيْنُ الظلم، وعَيْنُ الشرك بالله جَلَّ في علاه، ولذلك قال جَلَّ وعلا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

١- انظر «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٠-٢٣١)، و«فتح المجيد» (ص ٢٢١)، و«سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للهلالي (٥/ ٣١٧)، و«هذه مفاهيمنا» لصالح آل الشيخ (ص ١٢٤).

لماذا سمي الشرك ظلماً؟ لأنه صرفٌ لحقِّ الله لغيره، وغيره لا يستحقُّه، وفي هذا الشرك تدخل الشفاعةُ التي نفاها الله في كتابه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «فِيما لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ»، يَدُلُّ على أَنَّ طَلَبَ الشَّفَاعَةِ مَمْنٌ يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَمْرٌ جَائِزٌ، فَلَوْ أَنَّكَ طَلَبْتَ مِنْ رَجُلٍ أَنْ يَشْفَعَ لَكَ عِنْدَ رَئِيسِهِ فِي الْعَمَلِ أَنْ يَشْغَلَكَ، فَهَلْ هَذَا يَجُوزُ؟ نَعَمْ، يَجُوزُ، لِأَنَّكَ طَلَبْتَهَا بِتَوْفُرِ الشَّرْطِ، وَهِيَ أَنْ يَكُونَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ حَيًّا حَاضِرًا قَادِرًا، وَيَسْمَعُ مَا تَقُولُ لَهُ.^(١)

وهذه الشروط متوفرة فيمن طلبتَ منه العمل، لأنه قادر على أن يشغلك عنده.

لكن، لو قلتَ له: اشفِ مريضِي، فقد طلبتَ من حيٍّ حاضِرٍ ما لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ، فَدَخَلَ فِي الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ. فلا ينبغي أن يَحْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشَّرْطِ، وَإِلَّا فَإِنَّهَا تُصْبِحُ مِنَ الشَّفَاعَةِ الْمَنْفِيَةِ، وَهِيَ لَا تَنْفَعُ صَاحِبَهَا، وَلَكِنْ الَّتِي تَنْفَعُ هِيَ الشَّفَاعَةُ الْمَثْبُتَةُ.

١- انظر «الرد على البكري» (ص ١٩٤، ١٨٤، ٢٣٧، ٤٠٥)، و«الفتاوى»

(١/٣٢٩)، و«فتح المجيد» (ص ٢٠٣، ٤٦٠، ٥٧٢).

الشفاعة المثبتة

قال رَحِمَهُ اللهُ: «والشفاعة المثبتة: هي التي تُطَلَّب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله -بعد الإذن- كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

الشفاعة المثبتة: هي التي تُطَلَّب من الله، كأن تقول: اللهم شفِّع فيَّ نبيَّك.^(١)

وفي حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يجوز أن يقال له: يا رسول الله اشفع فيَّ، لأنه حيٌّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سيطلبها من الله جلَّ وعلا. إذن، الشفاعة تُطلب من الله، ولا تُطلب من العبد الميت، لأنَّ الميت انقطع عمله.^(٢)

والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو طلبت منه الشفاعة في حياته فسيشفع لك بطلب الدعاء من الله بأن يقبل شفاعته فيك. وبهذا يتبين لك أن الشفاعة كلها مرجعها إلى الله جلَّ جلاله.

١- انظر «شرح كشف الشبهات» للشيخ صالح آل الشيخ (ص ١٨٦).

٢- انظر «التوسل: أنواعه وأحكامه» للشيخ الألباني (ص ٧٥-٨٣).

الشافع مكرم بالشفاعة

قال رَحِمَهُ اللهُ: «والشافع مكرم بالشفاعة». وهذا حق.

فإن قال قائل: فلماذا لا يغفر الله للعبد بدون شفاعة؟

والجواب أن يقال: إن الله قادرٌ على أن يغفر بغير شفاعة، ولهذا إذا شفع النبيون والصالحون والشهداء وغيرهم يوم القيامة يُخرجُ الله تعالى برحمته من النار أقواماً صاروا حمماً، في قلوبهم مثقال ذرةٍ من إيمان، يُخرجُهم الله جلَّ وعلا بدون شفاعة.

إذن، فما الغاية من الشفاعة؟ إكرامُ الشافع، أي: أن الله جلَّ جلاله يريد أن يُظهرَ فضلَ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيُكرمه بالشفاعة، لتعلم منزلته عند ربه.



شفاعات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنقسم إلى قسمين: ^(١)

- شفاعة خاصة به: لا تكون إلا له وهذه على ثلاثة أنواع.
- وشفاعة له ولغيره: من الشهداء والصالحين والأنبياء والصديقين والملائكة.

① أما الشفاعات الخاصة به، فهي:

- شفاعته في أهل المَحْشَر: كما ورد في الصحيح ^(٢) في حديث الشفاعة الطويل المعروف، بعد أن يتأخر عن ذلك الأنبياء، ويذكر كل منهم ذنبه، إلا عيسى عَلَيْهِ السَّلَام ^(٣)، ثم يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسجد عند العرش، فيقول الله له: «يا محمد ارفعْ، وَقُلْ يُسْمِعْ، وَسَلِّ تَعْطُ، وَاشْفَعْ

١- انظر «الفتاوى» (١/١١٦)، و«شرح الواسطية» للهراس (ص ١٠٢-١٠٣)، و«التعليق على لمعة الاعتقاد» لابن عثيمين (ص ٥٥)، و«القول المفيد» له أيضا (١/١٨٩-١٩٠).

٢- رواه البخاري ومسلم. وانظر «التذكرة» (١/٢١٠)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٣/٤٦٠).

٣- وفي بعض الروايات: «فيأتون عيسى عَلَيْهِ السَّلَام فيقول: إني عُدْتُ من دُون الله، ولكن اتُّوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...». انظر «القيامة الكبرى» للأشقر (ص ١٧٥).

تُشَفَّعُ»، فيشفع صلى الله عليه وسلم في الناس حتى يحاسب الله جلّ وعلا الخلائق، وهذا هو المقام المحمود الذي جاء في قول الله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ السَّمَاءِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ [الإسراء: ٧٨ - ٧٩].

لماذا سُمِّيَ بالمقام المحمود؟

لأنه يحمده عليه الخالق والمخلوق. ^(١)

وفي ذلك اليوم العظيم يظهر فضل رسول الله، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وحينها يؤد الكافرون لو كانوا مسلمين، قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ (١) رَبِّمَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿[الحجر: ١ - ٢]. ^(٢)

١- انظر «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١٥٣/٥)، و«الإبانة» لأبي الحسن الأشعري (١٣٢)، و«البحر الزاخرة» للسفاريني (٧٧٠/٢).

٢- وفي الحقيقة أن الكفار وإن كانوا سيحاسبون بعد هذه الشفاعة إلا أن حالهم في الموقف خير مما هم مقبلون عليه من العذاب، عياداً بالله.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ^(١): «في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر تمنّوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين، وندموا على كفرهم. إذن، هنا يظهر فضل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذه هي الشفاعة العظمى».

■ والشفاعة الثانية: شفاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس كي يدخلوا الجنة، لأنَّ بابَ الجنة لا يُفتح إِلَّا له، فيأخذ بباب الجنة فيقول الملك: من؟ فيقول: محمد، يقول: بك أمرت أن لا أفتح إِلَّا لك، فإذا دخل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الناس بعده، وفي الحديث: «أنا أكثرُ الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أوَّلُ من يقرعُ بابَ الجنة»^(٢).

■ والشفاعة الثالثة: شفاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمه أبي طالب، ولا يشفع في كافرٍ أحدٌ غيرُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك لما لعمّه من فضل على المسلمين، فهو -مع خلوده في النار- قد خُفِّفَ عَذَابُهُ^(٣)، فهو في ضحضاحٍ من نار، وتحت نعليه جمرتان يغلي منهما دماغه^(٤).

١- «أضواء البيان» (٣/ ٧٩).

٢- رواه مسلم. وانظر «معارج القبول» (٢/ ٢٥١).

٣- قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «ليس عقابٌ من تغلّظ كفره وأفسد في الأرض ودعا إلى الكفر، كمن ليس كذلك». انظر «التخويف من النار» لابن رجب (ص ١٨٢).

٤- رواه البخاري ومسلم.

والضحضاح من الماء ما يبلغ الكعب.^(١)

وأما إبراهيم عليه السلام، فإنه لا يُشَفَّع في أبيه أزر، ففي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قترَةٌ وعبرةٌ، فيقول له إبراهيم: ألم أقُلْ لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تُخزيني يوم يُبعثون، فأَيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟، فيقول الله تعالى: «إني حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين»، ثم يُقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيخٍ مُلتَطِخٍ^(٢)، فيؤخذُ بقوائمه فيُلْقَى في النار».

فائدة: أوصلَ بعض أهل العلم الشفاعات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى خمس^(٣)، وآخرون إلى عشر.^(٤)

١- انظر «فتح الباري» (٧/ ٢٤٤).

٢- الذبيح: ذكر الضباع. انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٣٥).

٣- انظر «التذكرة» (١/ ٢١٥).

٤- انظر «البحر الزاخر» (٢/ ٧٦٩).

٢ القسم الثاني من الشفاعات: فهو له ولغيره، كشفاعته في قوم دخلوا النار أن يخرجوا منها، وشفاعته في قوم استحقوا النار ألا يدخلوها، وشفاعته في أقوام من أهل الجنة حتى تُرفع درجاتهم فيها.

فائدة: ذكر بعض أهل العلم أنواعاً من الشفاعات التي تحصل يوم القيامة، عدّ منها ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ سِتَّةَ أنواع^(١)، وأَوْصَلَهَا ابن أبي العز الحنفى رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى ثمانية^(٢).



١- كما نقله عنه صاحب «فتح المجيد» (ص ٢٢٣).

٢- انظر «شرح الطحاوية» (١٤٦-١٥٠).

شروط الشفاعة

خلاصة القول في هذا الباب: الشفاعة المثبتة هي التي تقع بشروط،

وهي:

- الرضا عن الشافع.
- والرضا عن المشفوع له.
- والإذن بالشفاعة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال النبي ﷺ - كما في «الصحيحين» - لما سأله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟»، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ».

إذن لمن تكون الشفاعة؟ لأهل التوحيد.

فمن طلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد موته، فقد وقع في الشرك، والنبي ﷺ لا يشفع إلا للموحدين، فمن أشرك لم يكن له حظ من شفاعته ﷺ.^(١)

فائدة: قال أهل السنة: الإذن بالشفاعة دليل على صفة الكلام، لأن الإذن لا يكون إلا بالكلام.^(٢)



١- انظر «التمهيد شرح كتاب التوحيد» (ص ١٧٨).

٢- انظر «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للرشيد (ص ٥٢).

القاعدة الثالثة

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَهَرَ فِي أَنْاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]».

اعلم -سددك الله- أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مُجْتَمِعُونَ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَالْكَفْرِ مُتَفَرِّقُونَ، وَلِهَذَا تَرَى الْمَشْرِكِينَ مُتَشَرِّذِينَ مُتَذَبِذِينَ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ، دِينُهُمْ كُفْرٌ، وَكُفْرُهُمْ دِينٌ، يَدِينُونَ بِهِ، وَيَحَارِبُونَ دُونَهُ، ضَيَّعُوا أَصْلَ الْأُصُولِ، وَتَاهُوا فِي ظُلُمَاتِ الشَّرْكِ بِلاَ عَقُولٍ.

يقول ابن تيمية: «أَهْلُ الْإِشْرَاقِ مُتَفَرِّقُونَ، وَأَهْلُ الْإِخْلَاصِ مُتَّفِقُونَ»^(١).
ولهذا ردّ المصنّف رَحِمَهُ اللهُ بهذه القاعدة الثالثة على من يقول: أنا لستُ كالْكَفَّارِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَحْجَارَ وَالْأَوْثَانَ، لِأَنِّي أَعْبُدُ مُحَمَّدًا، أَوْ أَعْبُدُ جَبْرِيلَ، أَوْ أَعْبُدُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ الْفُلَانِي، فَيَنْ الشَّيْخَ الْإِمَامَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ مَنْ عَبَدَ حَتَّى الْأَنْبِيَاءَ أَوْ الْمَلَائِكَةَ يُعْتَبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مُشْرِكًا، لِأَنَّ الشَّرْكَ صَرَفُ

١- «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٥٢٠).

العبادة لغير الله، كائناً من كان ذلك المعبود، والله جَلَّ جَلَالُهُ يقول: ﴿وَأَنَّ
 الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، و﴿أَحَدًا﴾ هنا نكرة في سياق
 النهي تفيد العموم، فتعمُّ أيَّ شيء يُدعى من دون الله.^(١)



١- انظر «حاشية ابن قاسم على ثلاثة الأصول» (الجامع، ص ٤٩).

واستدل المصنف رحمه الله بـ «قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾»، واللام هنا للاستحقاق، إذ كل عبادة هي حق محض لله جلّ وعلا، وصرفها لغيره شرك أكبر ناقل عن ملة الإسلام.

قال ابن سعدي رحمه الله: «ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن يكون الدين لله تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال»^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾»، أي: يُخلص التوحيد لله»^(٢).

١- «تفسير ابن سعدي» (ص ٨٧).

٢- انظر «تفسير ابن كثير» (٤ / ٤١).

وَمِنْ حِرْصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِمَايَتِهِ لِلتَّوْحِيدِ: نَهْيُهُ عَنِ السَّجُودِ لِلَّهِ فِي وَقْتٍ يَسْجُدُ الْكَفَّارُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ.

ولذلك جاء المنع من صلاة النافلة من بعد العصر إلى المغرب، ومن طلوع الشمس إلى ارتفاعها قدر رُمح، وعندما تكون الشمس في كبد السماء، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَتَحَرَّى أَحَدُكُمْ فَيَصِلِي عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا عِنْدَ غُرُوبِهَا»^(١). لماذا؟

لأنَّ المشركين في ذلك الوقت يسجدون لها، فنهيها عن التشبه بمن سجد لها، فما بالك بالسجود لها؟

وبهذا تعلم أَنَّ الشريعة جاءت لجلب المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها.^(٢)

الدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَصَالِحِ
فِي جَلِبِهَا، وَالذَّرْءُ لِلْقَبَاحِ
ولهذا بَوَّبَ الإمامُ المَجْدِدُ في «كتاب التوحيد»: باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى الشَّرْكِ.

١- رواه البخاري ومسلم.

٢- انظر «الفتاوى» (٢٧/٥٥) و«منهاج السنة» (١/١٤٧).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولقد جَرَّدَ السلفُ الصالحُ التوحيدَ، وحمَّوا جَنابَهُ، حتى كان أحدهم إذا سلَّم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا»^(١).



١- «إغاثة اللفهان» (١/ ١٨٢). وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٧٥)، و«فتح المجيد» (ص ٢٤٥).

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «ودليلُ الملائكة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]. ودليلُ الأنبياء: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]».

ساق المصنّف رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية - وهي «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾» - ليبيّن أنّ عبادة غير الله كفرٌ صراح، ولو كان المعبود من الملائكة.

والمشركون كانوا يظنون أنّ الملائكة هم بناتُ الله، تعالى اللهُ جَلَّ وعلا عن ذلك علوًّا كبيراً. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (الزخرف: ١٥ - ١٩)، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور:

[٣٩]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿[النجم: ٢١]

- [٢٢]، يعني: جائرة، وليست بعادلة.

ولمَّا ظَنُّوا أَنَّ الملائكةَ بناتُ الرحمنِ صرَفوا لها العبادة، وكانوا رُبَّما إذا عبدوا الصنمَ الذي جعلوه - في زعمهم - على شكل ملك، وطلبوا منه شيئا، أُجِيبَتْ دَعْوَتُهُمْ فَتَنَةً لَهُمْ، لأنهم في الحقيقة لم يكونوا يعبدون الملائكة، وإنما كانوا يعبدون الجنَّ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿[سبا: ٤٠ - ٤١]، فبيَّن أنهم في الحقيقة يعبدون الجنَّ، متوهِّمين أنهم ملائكة.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ريبَ أَنَّ الأوثانَ يحُصِّلُ عندها

من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم». (١)

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والخضر الذي يأتي كثيرا من الناس، إنما هو جِنِّيٌّ

تصوَّرَ بصورة إنسيٍّ كذاب، ولا يجوز أن يكونَ مَلَكًا مع قوله أنا الخضر،

فإنَّ المَلَك لا يكذب، وإنَّما يكذب الجنِّيُّ أو الإنسيُّ». (١)

والأنبياء والصالحون سَيَتَبَرَّوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ كُلِّ مَنْ عَبَدَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦]. وعليه، فحتى الأنبياء لا تجوز عبادتهم.

وعن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ».^(٢)

=

١- انظر «الفتاوى» (١/ ١٧٩) (١/ ١٢٦، ٢٤٨، ٢٤٩)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٤٠٧-٤٠٨)، و«الجواب الكافي» (ص ٢٠)، و«مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٤٢-٥٤٣).

٢- رواه مسلم.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَد، اشدَّ غَضَبُ اللَّهِ على قومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». ^(١)

١- رواه مالك في «الموطأ». وانظر «إغاثة اللهفان» (١/ ١٦٩-١٧٢)، و«فتح المجيد» (ص ٢٤٣).

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «نونيته»: ^(١)

ولقد نَهَانَا أَنْ نُصَيِّرَ قَبْرَهُ

عِيدًا حَذَارِ الشَّرِكِ بِالرَّحْمَنِ

وَدَعَا بَأَنْ لَا يُجْعَلَ الْقَبْرُ الَّذِي

قَدْ ضَمَّهُ وَتَنَّا مِنْ الْأَوْثَانِ



١- «شرح النونية» للهراس (٢/ ٥٨٣). وانظر «فتح المجيد» (ص ٢٥٧).

قال: «ودليلُ الصالحين: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ

رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]».

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، قال: «نَفَرٌ من الجنِّ

أَسْلَمُوا وكانوا يُعبدون، فبقي الذين كانوا يعبدون على عبادتهم وقد أَسْلَمَ

النَفَرُ من الجنِّ». في رواية قال: «نزلت في نَفَرٍ من العرب كانوا يعبدون نَفَرًا

من الجنِّ فأَسْلَمَ الجنيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون».

وعند البخاري: «كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناسًا من الجنِّ، فأَسْلَمَ

الجنُّ، وتمسك هؤلاء بدينهم».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: استمرَّ الإنس الذين كانوا يعبدون

الجنَّ على عبادة الجنِّ، والجنُّ لا يرضون بذلك، لكونهم أَسْلَمُوا، وهم الذين

صارُوا يَبْتَغُونَ إلى ربِّهم الوسيلة». (١)

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي هذا أنه لم يضرَّ الذين أَسْلَمُوا عبادةً

غيرهم بعد الإسلام لهم، وإن كانوا هم أضلُّوهم أوَّلاً». (٢)

١- «فتح الباري» (٨ / ٥٠٥).

٢- «الفتاوى» (١٦ / ١٨).

قال: «ودليلُ الأشجار والأحجار: قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩)

وَمَنْوَةُ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿[النجم: ١٩ - ٢٠]﴾.

- وكانت اللَّاتُ لثَقِيف، (وقيل: لهْذِيل وخُرَاعَة).
- والعُزَّى لقریش وبني كنانة.
- وَمَنَاة لبني هلال.

❶ وقد قرأ الجمهور قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾: اللَّاتُ بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بتشديد التاء: اللَّاتُ.

- فعلى القراءة الأولى (اللَّاتُ): معناها صخرةٌ بيضاء منقوشةٌ، عليها بيتٌ بالطائف له أستار وسَدَنَة، أي: حُرَّاس وخدمة.
- وعلى الثانية (اللَّاتُ): فالمقصود به -كما قال ابن عباس- رجلٌ كان يُلْتُ السَّوِيقَ لِلْحُجَّاجِ، أي: يخلط الدَّقِيقَ بالماء والسَّمْنِ، ويعطيه لِلْحُجَّاجِ إكراماً لهم.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم عبدوا الصخرةَ والقبرَ تألُّهاً وتعظيماً.^(١)

١- انظر «فتح المجيد» (ص ١٤٥).

② والعُزَّى: مشتقة من العزيز، واللات: مشتقة من الله، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، جلَّ في علاه.^(١)

والعُزَّى كانت شجرة تُعبد من دون الله، فأرسل إليها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد فقطعها، ولما رجع قال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ماذا فعلت بالكاهنة؟»، فقال خالد: لم أقتلها. فقال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً». فرجع إليها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا امرأة عارية ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فعممها بالسيف فقتلها، ثم رجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره الخبر، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تلك العُزَّى».^(٢)

فهذه الكاهنة هي العُزَّى على الحقيقة، لأنها هي التي تدعو إلى عبادتها من دون الله. وكان خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:^(٣)

يَا عَزًّا كُفْرَانُكَ لَا سَبْحَانَكَ

إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

١- راجع «القواعد المثلى» للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٢٦).

٢- رواه النسائي بسند حسن.

٣- انظر «تفسير ابن كثير» (٣٤٨ / ٧).

③ وأما مَنَاءٌ، فقد كانت صخرةً^(١)، وسُميت بذلك لأمرين:

- قيل: مشتقة من المَنَّان، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، كما تقدم.
 - وقيل: لكثرة ما يُمنَى عليها من الدِّماء، فأنتهم كانوا يذبحون عندها.
- القرايين.



١- انظر «فتح الباري» (٧٧٨-٧٨٠)، و«محاسن التأويل» للقاسمي (٥٢٦/٨).

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «وحدّث أبو واقد الليثي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «خرَجنا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حُنين - ونحن حُدثاءٌ عَهِدٍ بِكُفْرٍ - وللمشركين سِدْرَةٌ يَعْكُفونَ عندها وَيُنْوَطُونَ بها أَسْلِحَتَهُمْ، يُقال لها: ذاتُ أنواطٍ، فمَرَرنا بِسِدْرَةٍ، فَقُلنا: يا رسولَ اللهِ، اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ». الحديث».

وتَمَّتْ الحديث: فقال رسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنها السُّنَنُ، قُلتُم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرَكِبَنَّ سَنَنَ مَنْ كان قَبْلَكم».

والمقصود من إيرادِ هذا الحديث أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ قولَ الصحابة الذين كانوا حُدثاءَ عَهِدٍ بِكُفْرٍ، فقد تَخَفَى عليهم بعضُ المسائل في التوحيد.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ في مسائل «كتاب التوحيد» حول هذا الحديث:

المسألة الخامسة: أنهم جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

وقال في المسألة الثانية عشرة: قولهم - ونحن حُدثاءَ عَهِدٍ بِكُفْرٍ - فيه: أنَّ غيرهم - يعني بقية الصحابة - لا يجهل ذلك.

ومع هذا فالنبي ﷺ أعظم قولهم وأكبره وشبهه بقول بني إسرائيل، فشبه المَقَالَ بالمَقَالَ.

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «شبه مَقَالَتَهُمْ هذه بقول بني إسرائيل، بجامع أَنَّ كُلًّا طَلَبَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ مَا يَأْلَهُ وَيَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ اللَّفْظَانِ فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، فَتَغْيِيرُ الْأَسْمِ لَا يُغَيِّرُ الْحَقِيقَةَ».^(١) فالْحَاصِلُ أَنَّ الصَّحَابَةَ طَلَبُوا وَلَمْ يَفْعَلُوا، وَمَعَ هَذَا فَانْظُرْ كَيْفَ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَهُمْ بِقَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا يُنْظَرُ فِيهَا إِلَى مَنْ صُرِفَتْ إِلَيْهِ مَا دَامَتْ لغير الله، لِأَنَّ صَرْفَهَا لغير الله شُرْكٌ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ.

١- «فتح المجيد» (ص ١٤٩). وقاعدة (تَغْيِيرُ الْأَسْمِ لَا يُغَيِّرُ الْحَقِيقَةَ): قاعدة عظيمة في

هذا الدين المبارك. انظر «المناهي اللفظية» لبكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ (ص ٢٧١-٢٧٨).

يقول العلامة تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللهُ: «عبادة غير الله تعالى كُلُّهَا سواء، وإن اختلف المعبودون، فَمَنْ عَبْدَ الملائكة والأنبياء كَمَنْ عَبْدَ الشياطين والأوثان»^(١).

إذا تقررَ أَنَّ الشَّيْءَ عِبَادَةٌ، فَصَرَفُهُ لغيرِ الله شركٌ، أَيَّا كان الذي صُرِفَتْ إليه^(٢).

والذي صُرِفَتْ إليه العبادة مِنْ دونِ الله هو أَوَّلُ مَنْ سَيَتَبَرَّأُ مِنْ هَؤُلَاءِ المشركين يومَ القيامة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].



١- «سبيل الرشاد» (٢/ ١٩٣).

٢- انظر «فتح المجيد» (ص ١٨١)، و«القول السديد» لابن سعدي (ص ٤٨).

هل يسمى من عبد وهو غير راض طاغوتاً؟

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «الطاغوت هو كُلُّ ما يُعْبَد من دون الله». ^(١)
وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «والتحقيق أَنَّ كُلَّ ما عُبد من دون الله فهو
طاغوت، والحظُّ الأكبرُ من ذلك للشيطان». ^(٢)
والصحيح أَنَّ مَنْ عُبد وهو غير راضٍ لا يسمى طاغوتاً: لأنه ليس هو
المعبود أصلاً، وإنما المعبودُ هُم مَرَدَةُ الجنِّ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا
ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَكَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ
دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١]، فتتصوَّر
لهم، وتُحقِّق لهم بعض طلباتهم، وتُخيفهم من جانب، وتزيدهم رَهَقاً
ليزدادوا بهم تعلقاً وخوفاً ورغبةً. ^(٣)

١- انظر «مدارج السالكين» (٢/ ٥٦١)، و«الدين الخالص» (١/ ٣٩-٤٠).

٢- «أضواء البيان» (١/ ١٨٣).

٣- من كلام الشيخ بدر بن علي بن طامي العتيبي -نفع الله به-. وانظر «تيسير العزيز
الحميد» (ص ٣١)، و«شرح معنى الطاغوت» للفوزان (ضمن سلسلة شرح الرسائل،
ص ١٠، ٣١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فالمعبودُ من دون الله إذا لم يكن كارهًا لذلك فهو: طاغوت».^(١)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الطاغوت: ما تجاوز به العبدُ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ».^(٢)

فائدة: يقول الله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. فهل يدخل في هذا من عبد وهو غير راضٍ؟

أما إن كان المعبودُ من دون الله شجرًا أو حجرًا فهذا لا إشكال في دخوله في هذه للآية.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد، لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيانٌ لكذب من اتخذها آلهةً، ويزداد عذابُهم، وتعظم حسرتُهم.

١- «الفتاوى» (٢٨/١١٣).

٢- «إعلام الموقعين» (٢/٩٢). ونقله عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «ثلاثة الأصول».

وقد فرح بعض المشركين بهذه الآية لما نزلت، وقالوا: قد (عُبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع ألهتنا). وقد قال هذا ابن الزُّبَيْرِ محاجاً به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الذي قال ابن الزُّبَيْرِ خطأ كبير لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقييماً وتوبيخاً لعبادها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾. فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرَضَ بعبادة مَنْ عبده؟!»^(١)

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام أو ما عبد وهو راض بعبادته»^(٢).

وأجاب عن استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾، بثلاثة أوجه، وهي:^(٣)

١- «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٨٢). وانظر «الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح»

(١٣٨-١٣٩)، و«الصحيح المسند من أسباب النزول» للوداعي (ص ١٣٥).

٢- «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٦٢٠).

٣- «سبيل الرشاد» (٢/ ١٩٣).

■ أحدها: أن «ما» في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ اسمٌ لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

■ الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً، ولا يعبدون المسيح.

■ الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ قوله جَلَّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء، داخلون في هذه الآية.

وقال الشيخ تقي الدين الهلالي رَحِمَهُ اللهُ^(١): «قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي: كُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، ولم يَرْضَ بعبادة العابدين، بل دعا إلى توحيد الله، مُبْعَدٌ عن النار ﴿لَا

١- «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» (٢/ ٧٤-٧٦)، باختصار.

يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴿١٠٠﴾ أي: صوتها، ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من
 النعيم ﴿خَالِدُونَ﴾ باقون إلى الأبد، ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو
 الخوف الذي يحصل للمجرمين عند النفخة الأخيرة في الصور، ﴿وَنُنَلِّقُهُمُ
 الْمَلَكَةَ﴾ أي: تستقبلهم بالبشرى قائلين لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي
 كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وكان عبدالله بن الزبير شاعراً شديداً
 العداوة للإسلام، ثم أسلم ومدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



القاعدة الرابعة

قال المصنّف رَحِمَهُ اللهُ: «أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شُرَكَاءَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ، وَمُشْرِكِي زَمَانِنَا شُرَكَاهُمْ دَائِمًا فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَإِذَا رَكَّعُوتًا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]».

القاعدة الرابعة أفادتنا أَنَّ شُرَكَاءَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَعْظَمُ مِنْ شُرَكَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ.

شُرَكَاءُ الْمُتَأَخِّرِينَ أَعْظَمُ مِنْ شُرَكَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجِهٍ

المصنّف رَحِمَهُ اللهُ ذَكَرَ هُنَا وَجْهًا، وَفِي الْحَقِيقَةِ شُرَكَاءُ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ أَعْظَمُ مِنْ شُرَكَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَذَلِكَ مِنْ عِدَّةٍ أَوْجِهٍ:

① أولها: ما ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، فَإِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ شَدَّةٌ وَأَصَابَهُمْ خَطْبٌ جَلَلٌ ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١).

١- وانظر «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٤٣)، و«سبيل الرشاد» (١/ ٣٢٨)، و«فتح

المجيد» (ص ٥٧)، و«الدين الخالص» (١/ ١٣٣).

يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي «نور الاقتباس فِي مَشْكَاتِ وَصِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عَبَّاسٍ» (الرسائل، ٣/ ١٤١): «وَالْمُشْرِكُونَ يُخْلِصُونَ الدَّعَاءَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فِي حَالِ

قال تعالى في هؤلاء المشركين: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿[الإسراء: ٦٧ - ٦٩].



الشدة، ويُفردونه بالسؤال والطلب لعلمهم أنه لا يكشف الضرَّ سواه سبحانه، ثم يعودون عند كشف الضرِّ عنهم إلى الشرك كما ذكر سبحانه ذلك عنهم في مواضع من كتابه وذكَّهم عليه، فأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمخالفتهم في ذلك بالتعرُّف إلى الله في حال الرِّخاء بإخلاص الدين له وحده وبطاعته والتقرب إليه، ليوَجِبَ ذلك معرفته لهم في الشدة وكشفها عنهم.

سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل

وفي هذا قصة فيها عبرة، وهي قصة عكرمة بن أبي جهل^(١) الذي أهدر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دمه في فتح مكة، فهرب وركب البحر، فلما كان في البحر، تحرّك بهم الموج وظنوا أنهم هالكون، فإذا بالمشرّكين وقد توجّهوا إلى الله جلّ وعلا يدعونه مخلصين له الدين، فقال عكرمة: والله لئن لم يُنَجِّنِي من البحر إلّا الإخلاص لا يُنَجِّنِي في البرّ غيره، اللهم إنّ لك عليّ عهداً إنّ أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أضع يدي في يده، فلا جدّنه عفوّاً كريماً، فجاء فأسلم، وحسّن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع أن أباه هو أبو جهل، فرعونُ هذه الأمة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

وإذا تأملت حال المشرّكين في الأزمنة المتأخّرة وجدتهم يشركون في الرّخاء وفي الشدّة، ولذلك كان شرّكهم أشدّ من شرك المتقدّمين. نسأل الله العافية.

١- رواها أبو داود والنسائي، وغيرهما.

وصدق القائل في وصف مشركي زماننا: ^(١)
 زادوا على شرك الذين إليهم
 بعث الرسول بأصدق الأنبياء
 إذ يخلصون لدى الكروب وهؤلاء
 في شركهم في شدّة ورخاء
 بل في الشدائد شركهم أضعاف ما
 قد أشركوا في حالة السراء

وفي هذا يقول العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ ^(٢): «ولقد أخبرني بعض من
 ركب البحر أنه اضطرب اضطراباً شديداً، فسمع من أهل السفينة - من
 الملاحين وغالب الركابين معهم - يُنادون الأموات ويستغيثون بهم، ولم
 يسمِعهم يذكرون الله قطُّ، قال: ولقد خشيت في تلك الحال الغرق لما
 شاهدته من الشرك بالله».

١- «معارج القبول» (١/٤٣٦). وانظر لهذا قصة ذكرها الشيخ محمد أمان الجامي

رَحِمَهُ اللهُ في «شرحه على القواعد الأربع» (ص ٩٥).

٢- «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٥٢٠).

يقول العلامة الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ في «داليته» المشهورة:
 أعادُوا بها معنى سُواعٍ ومثله
 يغوثٌ وودٌ، بئسَ ذلكَ مِن وُدٍّ
 وقد هتَفُوا عند الشدائدِ بِاسْمِها
 كما يهْتَفُ المضطَّرُّ بالصَّمدِ الفَرْدِ
 وكم نَحَرُوا في سَوَاحِها مِن عَقِيرَةٍ
 أَهَلَّتْ لِغَيْرِ اللَّهِ جَهْرًا على عَمَدِ
 وكم طائفٍ حَوْلَ القُبُورِ مُقَبِّلِ
 وَيَسْتَلِمُ الأركانَ مِنْهُنَّ باليدِ



2 الوجه الثاني: الذي يُبيّن أنّ شرك المتأخرين أعظم من شرك المتقدمين هو أنّ المتقدمين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية إجمالاً.

وأما المتأخرون، فمنهم من صرّف بعض أفراد الربوبية لغير الله كقولهم: (إن فلانا يعلم الغيب)، وقول بعض الصوفية: (القُطبُ الفلاني يتصرّف في كذا، والقُطبُ الآخر يتصرّف في كذا).

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ^(١): «فإنّ في المسلمين اليوم من يصرّح بأنّ في الكون متصرّفين من الأولياء دون الله تعالى ممّن يسمّونهم (الأقطاب)، وفيهم من يقول: نظرة من الشيخ تقلّب الشقيّ سعيداً، ونحوه من الشراكيات».

وقال العلامة حافظ حكيمي رَحِمَهُ اللهُ: «وأيضاً فإنهم يعتقدون فيهم من صفات الربوبية، وأنهم متصرّفون فيما لا يقدر عليه إلا الله. وغلا بعضهم حتى جعل منهم المتصرّف في تدبير الكون على سبيل الاستقلال، ويقولون فيه: (إنها لا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا بإذن فلان)، تعالى الله وتقدس وجلّ وعلا عن أن يكون معه إلهٌ غيره، أو يكون له شريك في الملك، أو ولي من الذل، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

١- في مقدمة تحقيقه لكتاب «الآيات البيّنات لعدم سماع الأموات» للآلوسي (ص

٢٥)، بتصرف يسير. وانظر «تفسير رشيد رضا» (١١ / ٣٩١).

يَصِفُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٢]﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ
إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿[المؤمنون: ٩١ - ٩٢]﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا
يَقُولُونَ إِذَا لَا تَنْعَوُا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ
لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿[الإسراء: ٤٢ - ٤٤]﴾ وغير ذلك من الآيات». (١)



١- «معارج القبول» (١/ ٣٨٤-٣٨٥). وانظر «الرد على البكري» (ص ٣٥١).

3 الوجه الثالث: أَنَّ الأولين يدْعُونَ مع الله أناساً مقربين عند الله: إمَّا أنبياء وإمَّا أولياء وإمَّا ملائكة، أو يدعون أشجاراً أو أحجاراً مطيعةً لله وليست عاصية، وأهل زماننا يدْعُونَ مع الله أناساً من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكُون عنهم الفُجور من الزنا والسرقه وترك الصلاة وغير ذلك. والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر أهونُ ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به.^(١)

يقول العلامة الصنعاني رَحِمَهُ اللهُ في سياق حديثه عن المشركين في العصور المتأخرة: «وقد يعتقدون في بعض فسقة الأحياء، وينادونه في الشدة والرخاء، وهو عاكفٌ على القبائح والفضائح، ولا يحضُر حيث أمر الله عِبَادَهُ المؤمنين بالحضور هناك، ولا يحضُر جمعةً ولا جماعةً، ولا يعود مريضاً ولا يُشيع جنازة، ولا يكتسب حلالاً، ويضُمُّ إلى ذلك دعوى التوكل وعلم الغيب، ويجلب إليه إبليسُ جماعةً قد عَشَّشَ في قلوبهم وباضَ فيها وفرَّخَ، يصدِّقون بهتانه، ويعظِّمون شأنه، ويجعلون هذا ندّاً لرب العالمين ومثلاً. فيا للعقول أين ذهبت؟ ويا للشرائع كيف جهلت؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

١- من كلام الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ في «كشف الشبهات».

اللَّهُ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ^١ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ [الأعراف: ١٩٤].

فإن قلت: أيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخُلعاء مشركين كالذين يعتقدون في الأصنام؟ قلت: نعم، وقد حصل منهم ما حصل من أولئك، وساوَوْهم في ذلك، بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد، فلا فرق بينهم^(١).



١- «تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد» (ص ٦٤).

4 الوجه الرابع: أَنَّ المشركين المتقدمين يعتقدون أَنَّ ما هم عليه مخالفٌ لدعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما مشركو زماننا فيعتقدون أَنَّ ما هم عليه هو عَيْنُ التوحيد.

5 الوجه الخامس: أَنَّ المشركين المتأخرين يزعمون أَنَّ قصدَ الصالحين والتوجهَ إليهم من حقِّهم، وأنَّ تركه جَفَاءٌ وإِزْرَاءٌ بهم، ولم يكنِ المتقدمون يذكرون هذا.

فائدة: أختِمَ الكلام عن هذه القاعدة بكلامٍ للعلامة تقي الدين الهلالي يقول فيه رَحِمَهُ اللَّهُ: «شُرْكُ المشركين في هذا الزمان، أَغْلَظُ بكثيرٍ من شركِ المشركين في زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أَنَّ أولئك لم يَكُنْ عندهم كتابٌ منزلٌ محفوظٌ ولا سنةٌ نبيِّ مدوَّنةٌ، وإنَّما كان عندهم بقيَّةٌ قليلةٌ من دينِ إبراهيمَ وإسماعيلَ، وهؤلاء (يعني أهلَ زماننا) عندهم كتابٌ مَصُونٌ في المصاحفِ، محفوظٌ في الصدور، مبَيَّنٌ بالتفاسير، وعندهم سنةُ النبيِّ سيِّدِ المرسلين مدوَّنةٌ مبيَّنةٌ، ومع ذلك بلغوا إلى هذا الدَّرَكِ الأسفلِ من الشرك، ونَبَذُوا كتابَ الله وسنةَ رسوله وراءَ ظهورهم، واستعاضوا عنها أساطيرَ المتأخرين، فنحمدُ اللهَ على العافية».^(١)

ثم ختم المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ هذه الرسالة النافعة بقوله: «تَمَّتْ، وَصَلَّى اللَّهُ
على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم».

وإلى هنا ينتهي هذا الشرح، والله أسأل أن يتجاوز عمّا فيه من نقصٍ
وتقصير، وأن ينفع به كما نفع بأصله، إنه على كلّ شيء قدير.
هذا، والله أعلم، وصلى الله وسلّم وبارك على البشير النذير،
وآله الأطهار، وصحبه الأخيار،
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

-تم بحمد الله-



فهرس الموضوعات

٤	تقريظ فضيلة الشيخ د. بدر بن علي بن طامي العتيبي
٥	المقدمة
٨	بداية الشرح
١١	مقدمة المؤلف
١٧	مسألة: ما الفرق بين الحمد والشكر؟
٢١	تعريف الحنيفية
٢٣	تعريف العبادة
٢٨	أقسام الشرك وأنواعه
٣٠	هل يغفر الشرك الأصغر؟
٣٢	أهمية معرفة الشرك بتفاصيله
٣٧	القاعدة الأولى
٤١	أقسام التوحيد والرد على من أنكرها
٤٥	القاعدة الثانية
٤٦	مسألة الشفاعة فيها خفاء
٤٨	الشفاعة المنفية
٥٠	الشفاعة المثبتة
٥١	الشافع مكرم بالشفاعة
٥٢	شفاعات النبي ﷺ
٥٧	شروط الشفاعة
٥٩	القاعدة الثالثة
٧٦	هل يسمى من عبد وهو غير راض طاغوتا؟

القاعدة الرابعة..... ٨١

٨١..... شرك المتأخرين أعظم من شرك المتقدمين من خمسة أوجه

٨٣..... سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل

فهرس الموضوعات..... ٩٢